الفصل السابع

أزمة الصهيونية

ثمة انطباع عام فى الأوساط العربية مفاده أن الصهيونية هى مشروع ناجح تمامًا، أسس الدولة وحقق كل ما يصبو إليه من أهداف وغايات، ولا يمكن إنكار أن فى هذا القول شيئًا من الحقيقة، فانتصارات الدولة الصهيونية العسكرية ووجود أربعة ملايين مستوطن صهيونى فى وسط العالم العربى هو إنجاز استعمارى لا ريب فيه، ويعود هذا النجاح لعدة أسباب من بينها ما يلى:

١ - اكتشف الصهاينة الإمبريالية الغربية بحُسبانها الآلية الأساسية فى القرن التاسع عشر لتنفيذ أى مشروع خارج أوربا، فكل من كان لديه مشروع يرغب فى تحقيقه ما كان عليه إلا أن يتبنى الحل الداروينى السحرى وهو الحل الإمبريالى. فالإمبرالية الغربية كانت هى القوة العظمى التى كانت تقتسم العالم وتُصدِّر له كل المشاكل الغربية وكل فواتير التقدم الغربية، وتبطش بمن يقف فى طريقها. فالسلع الكاسدة كانت تصدر إلى أسواق الشرق، والمواد الخام الرخيصة كان يتم الحصول عليها من أفريقيا وآسيا عن طريق تحويلها إلى اقتصاديات متخصصة ملحقة بالاقتصاد الغربى وتحويل شعوبها إلى

يد عاملة رخيصة. أما الفاشلون اجتماعيًا (اللصوص – المجرمون – من لم يحققوا حراكًا اجتماعيًا داخل الاقتصاد الرأسمالى) فكانوا يُصدَّرون، تمامًا مثل السلع الكاسدة، إلى المستعمرات فى الشرق، خاصةً الجيوب الاستيطانية. وقد اكتشف هرتزل عبث المحاولات الصهيونية السابقة عليه، الرامية إلى تأسيس الوطن القومى اليهودى من خلال (الجهود اليهودية الذاتية) ولذا بدلاً من التوجه لأثرياء اليهود مثل روتشيلد، الملونير اليهودى، أو الحاخامات اليهود (بحُسبانهم القيادة التقليدية للجماعات اليهودية)، توجه مباشرةً إلى الاستعمار الإنجليزى.

٢ – حرص الصهاينة قبل وبعد تأسيس الدولة أن يحتفظوا بدورهم كقاعدة للاستعمار الغربى، وكقلعة أمامية له، تدافع عن أمنه ومصالحه. وقد ضمن لها هذا الوضع الدعم الغربى، العسكرى والسياسى والاقتصادى، الدائم.

٣ – الأيديولوجية الصهيونة أيديولوجية حديثة بمعنى الكلمة، داروينية حتى النخاع، لا تؤمن إلا بقيم الصراع والبقاء المادى للأقوى. وهى بالتالى أيديولوجية ذات جاذبية خاصة تلاقى هوى عند إنسان أوربا الحديث، داروينى المنزع والاتجاه. ومع هذا، ورغم داروينيتها الواضحة نجحت الصهيونية فى أن تخبىء هذا الجوهر المادى الحديث من خلال ديباجات دينية قوية ذات طابع رومانسى جذاب. وقد زاد هذا من مقدرتها التعبوية ولكنه فى ذات الوقت

كان مصدر ضعف، مما أدى إلى أزمة الصهيونية (كما سنبين فيما بعد).

٤ – الصهيونية أيديولوجية ذات مقدرة تعبوية عالية لأنها لجأت إلى صيغ مراوغة من الصعب كشفها إلا بعد عملية اختبار تستغرق وقتًا طويلاً. فقد ادعت الصهيونية أن اليهود شعب واحد وهو ادعاء ليس له ما يسانده في الواقع. ومع هذا طُرح هذا الشعار، وكأنه حقيقة قائمة، وصدقه الكثيرون بما في ذلك أعضاء الجماعات اليهودية. كما أنها ادعت أنها حركة يهودية وليست استعمارية استيطانية إحلالية، وهو ادعاء وجد صدى لدى الكثيرين في العالم الغربي، بين اليهود وغيرهم، فهذا الادعاء يبرر عمليات السفك والبطش ويريح ضمير الإنسان الغربي.

٥ – تظهر الصيغة المراوغة للصهيونية فيما نسميه (قضية الصهيونيتين). ففي تصورنا لا توجد صهيونية واحدة وإنما صهيونيتان: صهيونية استيطانية وأخرى توطينية. والصهيونية الاستيطانية (كما يدل اسمها) هي صهيونية اليهودي الذي يهاجر إلى فلسطين ويستوطن فيها، أما الصهيوني التوطيني فهو الذي لا يهاجر أبدًا ويكتفي بتمويل عملية الاستيطان ودعمها. والصهيونية الاستيطانية كانت دائمًا من شرق أوربا أما التوطينية فتأتي أساسًا من غربها (والولايات المتحدة وأحيانًا وسط أوربا)، وهذا التناقض حاد وعميق. وقد سخر دعاة الصهيونية الاستيطانية من الصهيونية التوطينية سماها

«صهيونية الصالونات». ودائمًا ما يحدث اشتباك بين الفريقين داخل المؤتمرات الصهيونية. ومع هذا عرفت الصهيونية وعرف الصهاينة أن يتعايشوا مع التناقض وأن يتقبلوا الصهيونيتين. ومؤخرًا كف الصهاينة عن المطالبة بـ «نفى الدياسبورا» أى تصفيتها، كما كانوا يفعلون فى الماضى، كما كفوا عن المطالبة بـ «غزو الجماعات» أى توظيفها لصالح المستوطن الصهيونى. وأصبح الحديث الآن عن ـ «الدياسبورا الالكترونية » و «الصهيونية التقنية» و «الصهيونية الاقتصادية» (ويهودية «دفتر الشيكات») أى أن يساهم أعضاء الجماعات اليهودية بأموالهم ومعارفهم ونفوذهم فى دعم المستوطن الصهيونى، دون أن يستوطنوا فيه بالضرورة.

بذور الأزمة

ولكن إلى جانب مواطن القوة، توجد مواطن ضعف نذكر منها ما يلى:

١ – يمكن القول بأن كل أيديولوجية تطرح مثالية ما، ولكن المثالية لابد أن تختلف عن الأكذوبة، بمعنى أن الرؤية المثالية الحقة قد لا تكون موجودة فعلاً فى الواقع، ولكنها موجودة بالقوة، عناصرها هناك تود أن تتحقق من خلال العمل الإنسانى (ويمكن أن نضرب مثلاً على ذلك بالرؤية القومية العربية، فهى تطرح فكرة الوحدة وأن العرب شعب واحد، وهى ولا شك رؤية مثالية، فالعرب مقسمون. ولكن الرؤية المثالية لها جذورها القومية فى الواقع: اللغة الواحدة –

الذاكرة التاريخية الواحدة – الامتداد الجغرافى المتصل – التكامل الاقتصادى الممكن).

أما الصهيونية فهى تستند إلى أكذوبة (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) تفصلها هوة سحيقة واسعة عن الواقع، حتى يمكن القول بأن الأيديولوجية الصهيونية عبارة عن ديباجة قوية لم تنبع من واقع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم ولا من واقع الفلسطينيين فى بلادهم، وإنما رؤية وُلدت على صفحات كتب مفكرين لم يدرسوا الواقع بما فيه الكفاية ولم يعرفوا إلا أقل القليل عن يهود العالم وعن فلسطين.

٢ – لكل هذا نجد أن الفكر الصهيونى فكر اختزالى يتجاهل معطيات الواقع سواء كان الأمر يتعلق بواقع أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم أم واقع الفلسطينيين العرب. وتتضح هذه الاختزالية فى إنكار التاريخ والتفكير فى وضع نهاية له: تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية والتاريخ العربى فى فلسطين، كما يتضح فى إنكار الجغرافيا. ففلسطين تصبح إسرائيل، وهى بلد لا حدود لها، إذ أن حدودها داخل مفهوم إرتس يسرائيل الدينى.

٣ – لكل هذا نجد أن العقيدة الصهيونية أيديولوجية فاشية، نسق عضوى مغلق يخلع القداسة على الأرض (أرض الميعاد) والشعب (الشعب المختار) وينكر الآخر (الصراع مع الأغيار والعقلية الجيتوية). ومثل هذه الأيديولوجيات تُكسب حاملها قوة ومناعة

وصلابة، ولكنها فى الوقت نفسه تتسم بالجمود والانغلاق. ومن ثم فكثير من التناقضات الكامنة داخل الأيديولوجية أو فى واقعها حينما تتبدى فى الواقع، تظهر بشكل عنيف إن لم يكن فجائيًا.

٤ – تستند الأيديولوجية الصهيونية إلى فكرة الهوية وإلى تعريف عضوى ضيق لها، ولذا فإن أية تحديات لهذه الفكرة تسبب شرخًا عميقًا فى المجتمع.

إن عناصر الأزمة كامنة فى الأيديولوجية الصهيونية، وقد ازدادت تفاقمًا حين بدأ تطبيقها على الواقع. ويمكن القول إن أزمة الصهيونية إن هى إلا نتيجة مباشرة للادعاءات الأيديولوجية الصهيونية المبدئية.

وقد أدّت الأزمة إلى انفراط العقد الاجتماعى الصهيونى أو على الأقل تآكله. فقد كان هناك اتفاق على المقولات الأساسية، مثل أن اليهود شعب واحد (يضم الدينيين والإشكناز والسفارد وغيرهم)، وهو شعب يطمح للعودة إلى أرضه للاستيطان فيها، وأن الصهيونية ستنهى حالة النفى وستقوم بتطبيع اليهود. لقد فشلت الصهيونية فى كل هذا، فاليهودى (هذا المكوّن الأساسى لهذا الشعب اليهودى) لم يعرَّف بطريقة ترضى كل الأطراف، وهو شعب يرفض العودة لوطنه «القومى» ، الأمر الذى يخلق أزمة سكانية استيطانية. ولهذا، لم يَعُد هناك اتفاق على المكونات الأساسية للصهيونية وأهدافها المبدئية، فالرؤية ليس لها ما يساندها فى الواقع، والواقع صلب لا يود أن يخضع للرؤية.

وقد ترجم هذا التآكل نفسه إلى عدم اكتراث بالمشروع الصهيونى الذى ترجم نفسه بدوره إلى عدم الإيمان بالقيم الصهيونية (الريادية) المبنية على التقشف وتأجيل الإشباع. وبدلاً من ذلك، ظهر السعار الاستهلاكى والنزوع نحو الأمركة والعولمة والخصخصة، وهى حالة لا تصيب الصهاينة وحدهم وإنما تصيب أىَّ مجتمع يفتقر إلى الاتجاه وإلى المشروع الحضارى ولا يحل مشكلة المعنى. ولكن رغم كل هذا التآكل يظل هناك إجماع صهيونى لم يتآكل وهو رفض الاعتراف بالفلسطينيين وحقهم فى هذه الأرض التى تم اغتصابها.

ويجب أن نؤكد على أنه بوسع المجتمعات الإنسانية أن تعيش فى حالة أزمة مستمرة لعشرات السنين دون أن (تنهار من الداخل)، إن لم تُوجَّه لها ضربة من الخارج. والتجمُّع الصهيونى ليس استثناءً من هذه القاعدة، وخصوصًا أن كميات المساعدات التى تصب فيه من الولايات المتحدة تزيد عن ثمانية بلايين دولار لمجموع عدد السكان الذى يبلغ عددهم حوالى أربعة ملايين، الأمر الذى يجعل التجمُّع الإسرائيلى (الاستيطانى الوظيفى) من أكثر المجتمعات تلقيًا للمساعدات الخارجية بالنسبة لعدد السكان. فالتجمُّع الصهيونى لا يحوى مكونات بقائه واستمراره داخله، فهو يستمدها من دولة عظمى تكفله وترعاه.

ويمكننا القول بأن عناصر الأزمة الصهيونية متشابكة تمامًا، فمشكلة الهوية مرتبطة بالأزمة السكانية (الديموجرافية) وكلاهما مرتبط بأزمة الهجرة والاستيطان وبقضية تطبيع الشخصية اليهودية. ومع هذا سنعرض

لهذه العناصر كما لو كانت منفصلة الواحدة عن الأخرى، ولكن عملية الفصل هذه هى ضرورة تحليلية وحسب.

أزمة الهوية

١ – هوية المستوطنين:

حينما أسست الدولة الصهيونية كان الجميع يظن – حسب التعريف الصهيونى – أن ثمة تاريخًا يهوديًا واحدًا وهوية يهودية واحدة، ولكن حينما توافد أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين المحتلة اكتشفوا ما أشرنا إليه فى بداية هذه الدراسة وهو أن العناصر غير المشتركة بينهم أهم بكثير من العناصر المشتركة. فانقسمت الدولة على أساس عرقى إلى بيض وسود، وعلى أساس إثنى إلى سفارد وأشكناز، وعلى أساس دينى إلى علمانيين ودينيين وانقسم الدينيون بدورهم إلى أرثوذكس من جهة ومحافظين وإصلاحيين من جهة أخرى. وقد فشلت الدولة الصهيونية حتى الآن فى تعريف اليهودى. وهو فشل له أهمية خاصة فى السياق الصهيونى باعتبار أن إسرائيل تدّعى أنها دولة يهودية أو دولة اليهود.

٢ – إشكالية الشخصية اليهودية:

كانت الصهيونية تزعم أنها ستشفى اليهود من أمراض المنفى (الهامشية – عدم الاشتغال بالوظائف الإنتاجية – الاشتغال بالمضاربات – عدم الانتماء) بنقلهم إلى فلسطين حيث سيقوم اليهودى بتخليص الأرض الفلسطينية من أيدى العرب بأن يستولى عليها ويقوم بزراعتها بنفسه

وبالعمل فى الوظائف الإنتاجية المختلفة، وهو بذلك يخلّص الأرض ويشفى ذاته من أمراض المنفى فى الوقت نفسه. ولكن بعد ما يزيد عن مائة عام من الاستيطان الصهيونى وبعد أكثر من أربعين عامًا من تأسيس الدولة الصهيونية يلاحظ أن الإسرائيليين لا يزالون يعانون أمراض الدياسبورا (المنفى)، فهم يعشقون التجارة والمضاربات فى البورصة، كما أنهم انسحبوا من القطاعات الاقتصادية الإنتاجية مثل البناء (الذى يشغله العرب الآن). ونلاحظ أن المجتمع الإسرائيلى مجتمع يضرب الفساد فى أطنانه (المخدرات – الإباحية) ويدرك الإسرائيليون تمامًا أن دولتهم دولة وظيفية تعيش على الدعم الأمنى والمالى الأمريكى السخى المستمر، وأنهم بذلك لا يختلفون كثيرًا عن يهود الجيتو الذين كانوا يعملون لصالح الملك أو النخبة الحاكمة نظير ما يحققونه من أرباح ونظير الحماية التى يزودهم بها أعيهم، فكأن الدولة الوظيفية هى ذاتها مصابة بأمراض النفى من طفيلية وهامشية.

وتسود إسرائيل عقلية استهلاكية عقلية «روش قطان» أى الرأس الصغير، وهى تشير إلى الإنسان ذى الرأس الصغير والمعدة الكبيرة. وقد ساعدت حدة هذا الاتجاه بعد موجة الهجرة السوفيتية الأخيرة فقد أتت العديد من المهاجرين الصهاينة المرتزقة، الذين ليس لهم أى انتماء أيديولوجى وغير ملتزمين إلا برفع مستواهم المعيشى، وقد أصبح لهؤلاء عدة ممثلين فى الكنيست وممثلين فى الوزارة الإسرائيلية، ولا يمكن لكثير

من الوزارات أن تستعر فى السلطة دون دعمهم وموافقتهم، وينعكس موقف المرتزقة هذا على جانبين مهمين من جوانب الحياة فى إسرائيل: الاستيطان والخدمة العسكرية.

٣ – هوية الدولة اليهودية : منظور توطينى:

يطرح أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم الكثير من الأسئلة بشأن هوية الدولة اليهودية، ومدى عمق – أو حتى حقيقة – انتمائها لليهودية، سواء بالمعنى الدينى أم الإثنى، فالتدينون يتساءلون: كيف يمكن أن تصنف الدولة الصهيونية على أنها دولة يهودية وهى من أكثر الدول إباحية فى العالم ولا يقيم سكانها الشعائر الدينية اليهودية؟ ويتساءل اليهود المهتمون بإثنيتهم موروثهم اليهودى السؤال نفسه: كيف يمكن أن نسمى الصهيونية التى تتزايد فيها معدلات الأمركة والعولمة بخطى متسارعة دولة يهودية؟ فبدلاً من أن تكون صهيون الجديدة أصبحت (ماك إسرائيل) الجديدة (نسبة إلى ماكدونالد). ويتساءل اليهود من ذوى الاتجاهات الثورية: هل يمكن أن نسمى دولة تقوم بالتجسس لحساب الولايات المتحدة وتزويد النظم الفاشية فى أمريكا اللاتينية بالأسلحة وكانت تتعاون مع نظام الأبارتهايد (التفرقة اللونية) فى جنوب أفريقيا وحاولت قمع الانتفاضة بكل أنواع الإرهاب المتاحة، ولا تزال تنكر على الفلسطينيين حق تقرير المصير وتستعمر أرضهم، كيف يمكن أن نسمى مثل هذه الدولة (يهودية)؟

٤ – هوية الدولة اليهودية: منظور استيطانى:

وقد طرحت القضية نفسها داخل إسرائيل ولكن على مستوى آخر وبشكل مختلف. فمن المعروف أن الاستعمار الصهيونى قد مر بثلاث مراحل: المرحلة الأولى هى المرحلة الإحلالية التى وصلت إلى ذروتها عام ١٩٤٨ مع إعلان الدولة وطرد الفلسطينيين ووصول آلاف المهاجرين للاستيطان فى أرض فلسطين. وهنا بدأت المرحلة الثانية، مرحلة الدولة الصهيونية « اليهودية الخالصة » ، ثم انتهت هذه المرحلة عام ١٩٦٧، وبدأت المرحلة الثالثة حين قامت إسرائيل بضم الضفة الغربية والقطاع، وهى مناطق مأهولة بالسكان العرب الذين لم يتمكن الاستعمار الصهيونى من طردهم فتحول الاستعمار الاستيطانى الإحلالى (على طريقة أمريكا الشمالية حيث يُباد السكان الأصليون أو يُطردون) إلى استعمار استيطانى مبنى على التفرقة اللونية (على طريقة جنوب أفريقيا حيث يتم الاحتفاظ بالأرض وبمن عليها من سكان يتم تحويلهم إلى مصدر للعمالة الرخيصة). وقد أتاح النظام العالمى الجديد فرصًا جديدة للنظام الاستيطانى الصهيونى حيث أصبح بوسعه أن يتجاوز نطاق فلسطين المحتلة ليتغلغل فى البلاد العربية وليحول السوق العربية إلى سوق شرق أوسطية يلعب هو فيها دور الوسيط الأساسى بين العرب والغرب، بل وبين كل دولة عربية وأخرى، ويصبح هو القناة التى توزع من خلالها رؤوس الأموال الخارجية على المنطقة، والهدف النهائى هو أن يقوم التجمع الصهيونى بتحديد شكل المنطقة وإدارتها بما يتناسب مع مصلحته والمصالح الغربية.

وتكمن المفارقة الكبرى فى أن توسع الجيب الاستيطانى يتطلب المزيد من المستوطنين، أى المادة البشرية المطلوبة للاستيطان والقتال حتى يمكنه من الاضطلاع بوظيفته التى تشكل أساس كيانه. ولكن المصادر البشرية للهجرة اليهودية قد جفت إلى حدٍّ كبير (بسبب تناقص أعداد اليهود فى العالم لانخفاض نسبة الخصوبة بينهم. وقد أفرغت الهجرة اليهودية السوفيتية الأخيرة المصدر الأخير للمادة البشرية الاستيطانية فى شرق أوربا، فيهود الولايات المتحدة وغرب أوربا هم صهاينة توطينيون ويهيجون دائمًا من أجل المستوطن الصهيونى ولا يهاجرون إليه قط). وتشاهد الدولة الصهيونية عددًا كبيرًا من النازحين، أى المستوطنين الصهاينة ممن يهاجرون من فلسطين المحتلة إلى الولايات المتحدة أو إلى أى بلد آخر، ومما يفاقم الأزمة تزايد السكان العرب.

كل هذا يجعل التوسع الاستيطانى والاقتصادى أمرًا عسيرًا، وقد ظهر فى إسرائيل صراع بين ما يسمى (الصهيونية الديموجرافية أو السكانية) و (صهيونية الأراضى). والاتجاه الأول الديموجرافى يرى أن الاحتفاظ بالأراضة المأهولة بالسكان العرب ليس من الحكمة فى شىء، فهم بتكاثرهم سيفوقون الصهاينة عددًا ويهددون الطابع اليهودى للدولة الصهيونية، بل ويرى هؤلاء أن تزايد عدد العرب يهدد الديمقراطية الإسرائيلية ذاتها، إذ من الصعب على دولة ديمقراطية أن تضم أقلية كبيرة (قد تصبح أغلبية) وتنكر عليها حق الاشتراك فى صنع القرار. ولذا يطالب دعاة هذا الاتجاه بتسليم المناطق المأهولة للعرب (كما حدث مع

قطاع غزة) والاحتفاظ بالنقط الإستراتيجية لضمان الأمن الإسرائيلى الأمر الذى سيوفر لإسرائيل الجو الملائم لتطوير اقتصادها بطريقة تسمح لها بقيادة منطقة الشرق الأوسط، أما الاتجاه الثانى (صهيونية الأراضى) فيذهب إلى أنه لا يمكن الانسحاب من أى من الأراضى التى احتلها الصهاينة (فهى أرض الميعاد المقدسة) وأنه يمكن الاحتفاظ بها وبمن عليها من السكان دون التخلى بالضرورة عن الطابع اليهودى للدولة (فالقمع المستمر للعرب سيضمن هدوءهم وهدوء المناطق كما تسمى الأراضى المحتلة فى الخطاب الصهيونى). ومما يجدر ملاحظته أن الاتجاه الأول يوصف بأنه (معتدل) بينما يوصف الثانى بأنه (متطرف) وحقيقة الأمر أنه لايوجد فارق جوهرى بينهما، فكلاهما يصدر عن الإجماع الصهيونى، ولايختلفان إلا فيما يتصل بطريقة التطبيق ونطاق التوسع، وترى الولايات المتحدة (رائدة النظام العالمى الجديد) أن مدرسة الصهيونية السكانية هى الأقرب لأهدافها، فالنظام العالمى الجديد يفضل عدم المواجهة المباشرة مع الشعوب المستغلة، وصهيونية الأراضى تؤدى إلى مثل هذه المواجهة.

تصاعد معدلات التوجه نحو اللذة

نظرًا للتوجه نحو اللذة فى التجمع الصهيونى نجد أن كثيرًا من المفاهيم الصهيونية قد تآكل وتراجع كما يتضح فى الموقف من الاستيطان ومن الخدمة العسكرية:

١ – تساقط المفهوم القديم للاستيطان:

المفهوم القديم للمستوطن الصهيونى باعتباره رائدًا يمسك المحراث بيد والبندقية بالأخرى قد تآكل، وظهر نوع جديد من المستوطنين الذين يبحثون عن الحراك الاجتماعى، وعن رفع مستوى معيشتهم، ولذا يلاحظ أن المستوطنات الجديدة فى الضفة الغربية مختلفة عن المستوطنات القديمة، فلا يوجد فيها أى مظهر من مظاهر التقشف، وإنما توجد فيها منازل فاخرة وحمامات سباحة وكل أشكال الرفاهية، والدعوة إلى الاستيطان فيها لا تأخذ شكل شعارات دينية أو حتى شبه دينية ولا أيديولوجية (أو حتى شبه أيديولوجية) وإنما هى دعوة سافرة للاستهلاك، فأحد الإعلانات عن أماكن للسكنى فى إحدى المستوطنات فى الضفة الغربية يتحدث عن فيلا واسعة، فى موقع جميل، بنصف ثمن الفيلات المماثلة داخل حدود عام ١٩٦٧ ولكنها مع هذا تقع على بُعد ثلاثين دقيقة من وسط القدس ونتانيا وتل أبيب؛ أى أنه أوكازيون واستيطان فى نفس الوقت، أو استيطان بالتقسيط المريح.

وهذه البيوت الاستيطانية الفارهة لا يقوم المستوطنون بحراستها إذ يتولى الجيش الإسرائيلى هذه المهمة بالنيابة عنهم، ولذا بدلاً من أن تكون المستوطنات هى المواقع العسكرية الأمامية للجيش الاستيطانى الصهيونى أصبحت تشكل عبئًا عسكريًا عليه. ولذا فقد أطلقنا على هذا النوع من الاستيطان (الاستيطان مكيف الهواء) وهو يعكس واقع الحياة فى إسرائيل أكثر من الشعارات الصهيونية الكاذبة التى تطلقها أبواق الصهيونية (والتى يصدقها بعض العرب).

ومما فاقم الوضع وصول ما يقرب من مليون من الاتحاد السوفيتى ليس لديهم انتماء يهودى (دينى إو إثنى) ولا حتى انتماء أيديولوجى صهيونى، فهؤلاء قد هاجروا لأسباب نفعية واضحة ولذا نحتنا مصطلح «الصهيونية النفعية» أو صهيونية المرتزقة لنصف دوافعهم) ولو سنحت لهم الفرصة للهجرة إلى الولايات المتحدة لفعلوا، وقد كوّن هؤلاء حزبًا سياسيًا ممثلاً فى الوزارة الإسرائيلية، وبرنامجه السياسى مكرس تمامًا لخدمة المهاجرين السوفيت دون أية توجهات أيديولوجية.

٢ – الخدمة العسكرية:

التجمع الصهيونى، كما نؤكد تمامًا تجمع استيطانى، وهو – شأنه شأنه كل التجمعات الاستيطانية – تجمع عسكرة، إذ أن عليه أن يقمع دائمًا، وبشكل مستمر، السكان الأصليين، ورفضهم للظلم الواقع عليهم، ومن ثم تكون الخدمة العسكرية أهم أعمال المواطنة، وكما قال أحد الشعراء الإسرائيليين: (إن كل الشعوب لها جيش ما عدا إسرائيل فإن الجيش له شعب).

ولكن لوحظ فى الآونة الأخيرة أن المستوطنين الصهاينة قد بدأوا ينصرفون عن الخدمة العسكرية بأعداد متزايدة، فهناك ظاهرة الفرار من الخدمة العسكرية التى لم تكن معروفة من قبل، وفى إحدى استطلاعات الرأى صرح ثلث الشباب الإسرائيليين أنه إن أتيحت لهم الفرصة أن يتحاشوا الخدمة العسكرية الإجبارية (التى تستغرق ثلاث سنوات) لفعلوا ذلك، ويعتمد الجيش الإسرائيلى على نظام الاحتياط فيقوم باستدعاء

جنود الاحتياط (الذين بلغ عددهم عام ١٩٩٦ حوالى ٤٢٩,٠٠٠) مرة كل عام لمدة ستة أسابيع لإعادة تدريبهم، وقد لوحظ أن حوالى الثلث يتغيبون، وفى أثناء الصدام الذى وقع بين الجيش الإسرائيلى وسكان نابلس فى سبتمبر ١٩٩٦ استدعت إحدى فرق الاحتياط الجنود التابعين لها والبالغ عددهم ٣٤٠، فلم يحضر سوى ٦٠، ولم يبق منهم سوى ثلاثين، وقد رفض أحدهم الذهاب للضفة الغربية، والأهم من هذا كله أن هناك قبولاً اجتماعيًا لهذا الموقف، وهو أمر جديد كل الجدة فى التجمع الصهيونى الذى كانت الخدمة العسكرية فيه (حتى نهاية الستينيات) تُعد الشرف الأكبر الذى يمكن للمواطن/المستوطن الحصول عليه.

وتعود ظاهرة الانصراف عن الخدمة العسكرية لعدة عوامل من أهمها التوجه نحو اللذة وضمور الدافع الأيديولوجى الصهيونى عند المستوطنين. ولكن مما عمق الاتجاه نحو الفرار من الخدمة العسكرية إحساس الإسرائيليين بما سماه المؤرخ الإسرائيلى يعقوب تالمون (عقم الانتصار) أى أن إسرائيل حققت انتصارات عسكرية كثيرة فى الأعوام (٤٨ - ٥٦ - ٦٧) ولكنها لم تنجح فى إنهاء حالة الحرب المنهكة، وقد تبع هذا مجموعة من الضربات: حرب الاستنزاف - حرب عام ١٩٧٣ - الهزيمة فى لبنان (المستنقع اللبنانى، كما يسمونه)، ثم جاءت الانتفاضة المجيدة عام ١٩٨٧، وعمليات حزب الله فى الجنوب اللبنانى (ومما لا شك فيه أن انتفاضة الأقصى ستصعِّد من هذا الاتجاه فى صفوف الجنود والمجندين الإسرائيليين). ولعل أكبر شاهد عى تراجع النزعة القتالية فى

التجمع الصهيونى وتصاعد معدلات التوجه نحو اللذة هو الضغط الشعبى المستمر على حكام إسرائيل أن ينسحبوا من لبنان بعد مقتل عدد من الجنود فى أثناء الحرب ضد المقاومة اللبنانية، إلى أن انتهى الأمر بالجيش الإسرائيلى الذى كان يدَّعى أنه لا يُقهر، بالانسحاب المذل فى جُنح الظلام.

اهتزاز مقولة (الوضع الراهن)

تُستخدَم عبارة (الوضع الراهن) للإشارة إلى الأمر الواقع الدينى بين المستوطنين الصهاينة إبَّان حكم الانتداب. فعلى سبيل المثال، تتوقف المواصلات العامة يوم السبت، ولكن يمكن استخدام السيارات الخاصة أو التاكسيات، وتُغلَق الشوارع فى الأحياء التى تقطنها أغلبية متدينة وتُترَك مفتوحة فى الأحياء الأخرى. أما أمور الزواج والطلاق فيسيطر عليها المتدينون (وهو استمرار لنظام الملة العثمانى والذى أبقت عليه سلطات الانتداب). وقد تم الاعتراف بالتعليم الدينى المستقل، وهو ما يعنى أن الدولة عليها أن تموله (وقد أصبح فيما بعد هو العمود الفقرى لتطور التطرف الصهيونى، ذى الديباجات الدينية). ولا تُعرض أفلام سينمائية ابتداءً من يوم الجمعة مساءً، وإن كان يُصرَّح بلعب كرة القدم يوم السبت (على أن تباع التذاكر فى اليوم السابق). وقد أرسل بن جوريون عام ١٩٤٧ (باعتباره رئيس الوكالة اليهودية) خطابًا إلى زعماء أجودات إسرائيل وعد فيه بالحفاظ على الوضع الراهن. وقد تم أيضًا إعفاء طلبة المعاهد الدينية من الخدمة العسكرية.

والعقد الاجتماعى الصهيونى يستند إلى قبول (الوضع الراهن) باعتباره الإطار المرجعى لكل العناصر التى تقبل المشروع الصهيونى. والتفاهم العملى يمكن أن ينصرف إلى التفاصيل والفروع ولكنه غير قادر على حل المشاكل المبدئية، ولذا فالعقد الاجتماعى الذى يستند إليه المجتمع على يد صهاينة غير يهود لا يكترثون باليهود وينظرون إليهم من الخارج باعتبارهم مادة استيطانية. ثم انضم إليهم صهاينة يهود غير يهود (بمعنى أنهم لا يتمسكون بالشعائر الدينية ويحاولون التخلص من أية خصوصية إثنية يهودية، حقيقية كانت أم وهمية) يشاركونهم عدم الاكتراث هذا. ثم ظهر دعاة الصهيونية الإثنية العلمانية الذين هوَّدوا الصهيونية العالمية عن طريق إدخال مصطلحات الحلولية اليهودية العضوية عليها. ثم كان هناك الجيب الصغير من الصهاينة الإثنيين الدينيين، وقد افترض هؤلاء منذ البداية أن الدين هو القومية وأن القومية هى الدين.

وقد تعايش التياران جنبًا إلى جنب: التيار الحلولى الدينى (القومية كدين والدين كقومية)، والتيار الحلولى العلمانى (القومية كدين)، وتقبلا سيادة الوضع الراهن، وكان من الممكن أن يستمر التياران فى التعايش إلى ما لا نهاية، فالخطاب الصهيونى المراوغ كان كفيلاً بذلك. ولكن قبول الوضع الراهن كان مجرد تفاهم عملى، ولم يكن مبدئيًا بأىّ شكل من الأشكال تتحكم فيه توازنات القوى بين الفريقين الدينى والعلمانى واللادينى.

وقد ظل الوضع الراهن قائمًا لمدة سنوات طويلة، ودخلت الأحزاب الدينية كل الائتلافات الوزارية التى حكمت إسرائيل، وقنعت بدور

التابع الذى يقنع بقطعة من الكعكة. ولكن مع تزايد علمنة المجتمع الصهيونى وعلمنة يهود العالم وتصاعد الخطاب الدينى وزيادة عدد الصهاينة من دعاة الديباجات الدينية وظهور مشكلة إجراءات التهود زادت حدة الاستقطاب فى المجتمع الصهيونى بين الدينيين والعلمانيين.

ومن الأمثلة على ذلك الموقف من طلبة المعاهد الدينية، فعند إعلان الدولة، وحين تم إعفاءهم من الخدمة العسكرية، كان عددهم لا يتجاوز ٤٠٠، ولكن عام ١٩٩٧ كان عددهم يزيد عن ٢٩,٠٠٠. وهذه الألوف لا تعمل، فهم طلبة وحسب، أى أن نسبة كبيرة من المستوطنين أصحاب الديباجات الدينية يعيشون على نفقة دافع الضرائب الإسرائيلى. ولذا أشار لهم أحد كبار العلمانيين فى إسرائيل بأنهم «طفيليون»، وهى كلمة لها مدلول خاص فى المعجم الإسرائيلى، إذ كان يستخدمها أعداء اليهود للإشارة لهم. وقد قال شيمون بيريز حين هُزم فى الانتخابات: «لقد هزم اليهود الإسرائيليين»، كما لو كان هناك فريقان متصارعان فى إسرائيل: «يهود متدينون» ضد «إسرائيليين علمانيين»، والفريق الأخير ليس «يهوديًا».

واحتكار المؤسسة الدينية لعمليات الزواج والدفن يثير حفيظة العلمانيين. فالمهاجرون اليهود السوفييت (وعدد كبير منهم «غير يهود» حسب التعريف الأرثوذكسى) لا يمكنهم أن يتزوجوا فى إسرائيل أو يدفنوا حسب الشريعة اليهودية فيها. وقد أخرج جثمان أحدهم بعد خمسة أعوام من دفنه حين شكّت المؤسسة الحاخامية فى يهوديته.

كما أن أحد المستوطنين من أصل سوفيتى لقى حتفه بعد إحدى الهجمات الاستشهادية الفلسطينية ومع هذا لم يتم دفنه فى مقبرة يهودية.

كل هذا أدى إلى أن حوالى نصف الإسرائيليين يرى أن الموقف المتأزم بين العلمانيين والمتدينين سيؤدى إلى نشوب حرب أهلية (وقد تكون هذه مبالغة ولكنها «مبالغة دالة»، إن صح التعبير)، وقد قال الحاخام حاييم ميلر إن الحل هو الفصل بين الفريقين منعًا للاشتباك بينهما.

ومما فاقم من حدة التناقض ظهور ما يُسمَّى «الأصولية اليهودية». وتستخدم هذه العبارة فى الخطاب السياسى العربى والغربى للإشارة إلى شكل من أشكال التطرف الدينى عادةً «الأرثوذكسى» (وتُترجم كلمة «أصولى» أحيانًا إلى كلمة «متزمت» أو «متشدد» أو «متطرف» مما يعنى ترادف كل هذه المصطلحات مع لفظ «أرثوذكسى». وهذا خلل ناجم عن تطبيق مصطلح دينى، تم اقتراضه من نسق دينى ما ثم تطبيقه على نسق آخر).

ويرى مستخدمو هذا المصطلح أن هذه الأصولية تعود إلى الحاخام أبراهام كوك (الذى كان يشغل منصب الحاخام الإشكنازى فى فلسطين) وأنها مستمرة حتى هذه الأيام (على يد ابنه الحاخام تسفى كوك وغيره)، بل إنها آخذة فى التنامى. فقد بلغ عدد أعضاء الكنيست «الأصوليين» عام ١٩٩٩، أى ممثلى الأحزاب الدينية (المفدال وديجيل هاتوراه وشاش) ٢٣ عضوًا (مقابل ١٦ عضوًا فى الكنيست السابق) من مجموع ١٢٠ عضوًا. وتُعد هذه أكبر نسبة فى تاريخ إسرائيل السياسى.

وهذا التيار الدينى أصبح بمقدوره التحكم فى رئاسة الحكومة وإسقاط الحكومات. ولا يمكن تشكيل أية حكومة دون مشاركته (رغم أن أعضاء هذا التيار غير معنيين بالسياسة بالمعنى الضيق للكلمة فهم يهتمون بميزانيتهم بالدرجة الأولى) وهم يستأثرون بوزارات المستقبل (التعليم – الإسكان – الأراضى – المهاجرون – الأديان) ويتحكمون فى وزارة حيوية مثل وزارة التعليم، ويقال إنهم أصبح لهم نفوذ كبير داخل الجيش. فهناك حاخامية عسكرية تتولى مهمة التوجيه الفكرى والدينى داخل القوات المسلحة، وهى تباشر كل شئون الأحوال الشخصية المتعلقة بالعسكريين، وتشرف على المدارس العسكرية الدينية، وتخرج أجيالاً مسكونة بالكراهية المطلقة للعرب، كما تتولى الحاخامية إصدار الفتاوى التى تضفى القداسة على الممارسات والجرائم التى يرتكبها الجنود ضد العرب. وقد أوصل هذا التغلغل داخل الجيش عددًا غير قليل من الضباط الأرثوذكس إلى مراتب عليا.

وفى استطلاع أجرته صحيفة يديعوت أحرونوت قال ٤٧٪ من الإسرائيليين أنهم يتوقعون حدوث حرب أهلية بين المتدينين والعلمانيين اليهود (وقد تكون هذه مبالغة، ولكنها هى أيضًا «مبالغة دالة»). ودعاة الأصولية اليهودية يقفون الآن بمنتهى الحزم والشراسة ضد أى انسحاب من الضفة والجولان ويؤيدون طرد العرب، وهم مستعدون للذهاب فى سبيل الدفاع عن موقفهم هذا إلى ابعد مدى. ولا تنس أنهم يعتبرون باروخ جولدشتاين منفذ مجزرة الحرم الإبراهيمى قديسًا ومثلاً أعلى يجب الاحتذاء به.

والأطروحات الأساسية لهذه «الأصولية» – حسب تصور من يستخدمون هذا المصطلح – كما يلى:

١ – إنشاء دولة إسرائيل هو تجسيد للحلم التوراتى اليهودى القديم، رغم أن الحركة الصهيونية نفسها، المؤسسة للكيان الصهيونى، لم تكن حركة دينية، وإنما كانت أيديولوجية سياسية علمانية، ورغم أن الآباء المؤسسين (الحرس القديم) مثل بن جوريون وإيجال آلون، كانوا ملحدين فى حياتهم، علمانيين فى طرق تفكيرهم. ويسمى كوك هذه الظاهرة (وعد دينى يتحقق على يد علمانيين) «الانشطارية». ولذا بينما يرفض الأصوليون هذا الطابع العلمانى للدولة، فإنهم يقبلون بفكرة الدولة اليهودية نفسها (على عكس ناطورى كارتا التى ترفض فكرة الدولة من أساسها).

٢ – لا يمكن الثقة فى الأغيار، بأى شكل، وأرض إسرائيل الكبرى هى أرض يهودية، ولابد للدولة اليهودية أن تعتمد على نفسها وحسب. (رغم كل المساعدات الخارجية التى تصب فيها). ولذا لا يفهم أعضاء هذا اليمين الدينى الموازنات الدولية حق الفهم. وهم يتصورون أنه لا يمكن عقد سلام مع العرب، بل يجب طردهم أو تهجيرهم. ولذا نجد أن الأغلبية الساحقة لهؤلاء المستوطنين من أصحاب الديباجات الدينية يقفون ضد أى تنازل عن «الأرض اليهودية».

وهذه المقولات ليست بالضرورة مقولات دينية ويمكن لأى حزب علمانى أن يتبناها. وبالفعل نجد أن اليمين يضم فى صفوفه متدينين

قوميين وعلمانيين لا دينين. فهو يضم أحزابًا دينية مثل حزب المفدال وشاس وديجيل هاتوراه، ولكنه يضم أيضًا أحزاب موليدت وإسرائيل بعالياه وتسوميت. وحزب إسرائيل بعالياه هو حزب الصهاينة المرتزقة، أى المهاجرين السوفييت الراغبين فى تحسين مستواهم المعيشى، أما حزب تسوميت، فهو حزب صهيونى لا دينى. ولا يمكن الحديث عن نتنياهو أو عن جيله بأسره، باعتباره متدينًا.

التكاثر المفرط للمصطلحات الصهيونية

من مظاهر الأزمة الصهيونية «التكاثر المفرط للمصطلحات الصهيونية» وهذا التكاثر المفرط هو سمة أساسية للفكر الصهيونى منذ ظهوره. فهناك «الصهيونية الدبلوماسية» و «الصهيونية السياسية» و «الصهيونية العامة» و «الصهيونية العمالية» و «الصهيونية الاشتراكية» و«الصهيونية الدينية» و «الصهيونية العلمانية» و «الصهيونية الثقافية» و«الصهيونية الروحية» و«الصهيونية التصحيحية» و«الصهيونية التوفيقية» و«الصهيونية الإقليمية» و «صهيونية بدون صهيون» و«صهيونية صهيون» و«الصهيونية المسيحية» وصهيونية الأغيار» وغيرها من المصطلحات.

وقد استمرت الظاهرة بعد إنشاء الدولة وإن كان إسهال المصطلحات قد عبُر عن نفسه من خلال أسماء الأحزاب التى تتغيَّر بمعدل جنونى عند كل انتخابات وما بينها. وإذا كان التكاثر المفرط للمصطلحات سمة أساسية للخطاب الصهيونى قبل عام ١٩٦٧ فإن الأمور ازدادت سوءًا

بسبب تصاعُد الأزمة، فهناك الأزمة البنيوية للصهيونية وتوتر العلاقة بين المُستوطَن الصهيونى ويهود العالم. ولأن الأزمة لا حل لها والتوتر يتصاعد فإن الحلول المطروحة هى الأخرى تتزايد بشكل مفرط، ومن ثم تتكاثر المصطلحات وتتداخل فتضطرب.

وبعض التيارات الصهيونية الجديدة توصف بأنها «معتدلة» (صهيونية الخط الأخضر - صهيونية الحد الأدنى - الصهيونية الديموجرافية)، ويوصف البعض الآخر بأنه «متطرف» (صهيونية الأراضى - صهيونية الحد الأقصى - الصهيونية المتوحشة). وحقيقة الأمر - كما أسلفنا - أنه لا يوجد فارق جوهرى بينهما، فكلاهما يَصدُر عن الإجماع الصهيونى ولا يختلفان إلا فيما يتصل بطريقة التطبيق ونطاق التوسع.

ويظهر الخلط فى المصطلح أيضًا فى إدراك الحركة الصهيونية أن «الشعب اليهودى» يؤثر المنفى على «الوطن القومى» وأنه يحجم عن الهجرة إليه. ولكنها مع هذا ترفض الاعتراف بالأمر الواقع. ومما يزيد الأمور اختلاطًا أن هؤلاء الذين يرفضون الهجرة يسمون أنفسهم «صهاينة» لأسباب نفسية محضة لا علاقة لها بواقعهم أو سلوكهم. وقد طالب بن جوريون بعدم تسميتهم «صهاينة»، فالصهيونية - كما قال - هى الهجرة والاستيطان (ومن وجهة نظرنا، الاستيلاء على الأرض وطرد سكانها والقتال من أجلها)، فطالب بتسميتهم «أصدقاء صهيون» وحسب. ولكن مثل هذه الراديكالية قد تفضح المشروع الصهيونى ومن هنا مصطلحات مثل «الصهيونية النقدية» و «الصهيونية التقنية» (وهى سليلة

مصطلح بورخوف «صهيونية الصالونات»). وهى مصطلحات تشير إلى ظاهرة رفض أعضاء الجماعات اليهودية فى العالم الهجرة دون تسميتها بشكل صريح.

ونظرًا لكل هذه التطورات أصبحت كلمة «صهيونية» (تسيونوت بالعبرية) تعنى «كلام مدع أحمق» (الجيروساليم بوست ٢٦ أبريل ١٩٨٥) وتحمل أيضًا معنى «التباهى بالوطنية بشكل علنى مُبالَغ فيه»، وتدل على الاتصاف بالسذاجة الشديدة فى حقل السياسة (الإيكونومست ٢١ يوليه ١٩٨٤ وكتاب برنارد أفيشاى مأساة الصهيونية، ص ٢٦). ومن الواضح أن حقل الكلمة الدلالى أو منظورها يشير إلى مجموعتين من البشر: صهاينة الخارج، أى الصهاينة التوطينيون الذين يحضرون إلى فندق صهيون ويحبون أن يسمعوا الخطب التى لا علاقة لها بالواقع، ولذا فهى ساذجة، مليئة بالادعاءات الحمقاء والتباهى العلنى بالوطنية. وتشير فى الوقت نفسه إلى الصهاينة الاستيطانيين الذين يعرفون أن الخطب التى عليهم إلقاؤها إن هى إلا خطب جوفاء ومبالغات لفظية لا معنى لها، ولكن عليهم إلقاؤها على أية حال حتى يجزل لهم الضيوف العطاء. والمقصود الآن بعبارة مثل «اعطه صهيونية» هو «فلتتفوه بكلام ضخم أجوف لا يحمل أى معنى»، فهو صوت بلا معنى وجسد بلا روح ودال بدون مدلول.

وبطبيعة الحال يستطيع الكيان الصهيونى أن يتعايش مع كل هذه الأزمات، ولكن حينما يهب الفلسطينيون فى انتفاضة رفض شاملة

(كما حدث فى انتفاضة ١٩٨٧ وفى انتفاضة الأقصى والاستقلال) وحينما يقوم العرب بالهجوم على هذا الجيب الاستيطانى المغروس كالشوكة فى حلقنا (كما حدث فى جنوب لبنان)، فإن أزمة المجتمع الصهيونى تتبلور ويكتشف المستوطنون الصهاينة أن الادعاءات الصهيونية بأن فلسطين أرض بلا شعب وأن اليهود شعب بلا أرض، وأن الصهيونية هى القومية اليهودية، أو عودة اليهود إلى أرض أجدادهم هى كلها أكاذيب فرضها الصهاينة فرضًا على الواقع من خلال عمليات متواصلة من الإرهاب والعنف ومن خلال الدعم الإمبريالى الغربى.